وظائف أسوار مدينة تلمسان العتيقة

الأستاذ/ سيدي محمد نقادي

جامعة تلمسان

الملخص:

يتفق الجميع في الإشادة بمناعة أسوار مدينة تلمسان. فهل شُيّدت هذه الأخيرة لتكون فقط وسيلة دفاعية، أم لها وظائف أخرى يمكنها منافسة الوظيفة الدفاعية؟

بعد توضيح العامل الدفاعي لأسوار المدينة، و دورها في ضبط اتجاهات التيارات الهوائية ومن ثم تلطيف الجوّ، سنتعرض إلى وظائف عُدّت في عصور خلت وظائف ثانوية، وهي اليوم من ضمن العوامل الرئيسة في تنظيم المدن كالوظيفة البيئية (الإيكولوجية) والوظيفة الصناعية والوظيفة الاجتماعية.

هل يمكن اعتماد قانون شامل بالنسبة للمدن المغاربية؟

الكلمات المفتاحية: الأسوار – الدفاعات –داخل الحيز و خارجه – تنظيم الفضاء.

يتّفق الجميع في الإشادة بمناعة أسوار مدينة تلمسان العتيقة؛ فهل شُيّدت هذه الأخيرة لتكون فقط وسيلة دفاعية، أم لها وظائف أخرى يمكنها منافسة الوظيفة الدفاعية؟

بعد توضيح العامل الدفاعي لأسوار المدينة، ودورها في ضبط اتجاهات التيارات الهوائية ومن ثم تلطيف الجوّ، سنتعرض إلى وظائف عُدّت في عصور خلت وظائف ثانوية، هي اليوم من ضمن العوامل الرئيسة في تنظيم المدن كالوظيفة البيئية (الإيكولوجية) والوظيفة الصناعية والوظيفة الاجتماعية.

هل يمكن اعتماد قانون شامل بالنسبة للمدن المغاربية؟

كل من زار مدينة تلمسانفي أزهى عهدها أي في الفترة ما بين القرنين الهجريين الخامس والعاشر (11-16 م)، علماءكانوا أم عابري السبيل أم رحالة جغرافيين،إلاّ وذكروا أسوارها مع الإشارة إلى ارتفاعها ومتانتها وإحكام تحصيناتها، ومبرزين بذلك قيمة موقعها.

وما من شك أن هذا الموقع الممتاز كان قد استقر به الأوائل في الأزمنة الساحقة.لقد عُرف في الفترة العتيقة باسم "أقـــــادير" وهو لفظ فينيقي أدمج في اللهجة الزناتية (مع إضافة "أ" في البداية)، يتألف من جدر ثلاثي: ق . د . ر. الذي يعني في اللغات السامية الجدار المحفور في الصخر[1]. وفعلا، مَن يتأمل في بقايا سور "أقـــــادير" القديمة يترآى له أن السور هذا والمدينة محفوران في الصخر. وهو منظور يقرب "أقـــــادير" من الأضرحة الملكيةـــ:"الأجدار" بمنطقة فرندة.[2]

ونظرا للأهمية القصوى لاستراتيجية الموقع (تشرف المدينة على الطريق الرابط بين الغرب والشرق، كما سيمرّ بها الطريق العابر للصحراء).هذه الأهمية هي التي أشار إليهاهارون الرشيدإذْ يقال أنّه صرح لما دخل إدريس الأول إلى تلمسان بما يلي: "تلمسان باب إفريقية ومن ولج الباب دخل الدار" ويؤكّد الجغرافي المغربي الإدريسي أهمية الموقع بقولهالمحكم: "تلمسان قُفل المغرب". فهذا الموقع الاستراتيجي الممتاز سيجلب حتمًاللمدينة أطماع الجيران ومعانات جمّة

1 – تكنى تلمسان أيضا بمدينة الجدار ولا يقصد بالجدار، جدار موسى والخضر عليهما السلام، بل ينحدر اللفظ من اللغة الفينيقية التي أخذت بدورها من العبرية والأرامية وهما خاصية قلب الجيم إلى قاف معرقة على شاكلة ما يحدث بالبلاد المصرية.

2- أضرحة ملكية ذات الأصول البربرية المتأثرة بالثقافات المشرقية (الفينيقية). والكلمة تتألف هي أيضا من جدر ثلاثي (ج. د. ر) شبيه بـــ: ف. د. ر.

للسكان؛ وعليه كان لا بد من سلطات المدينة أن تحتاط لنفسها بتحصينات تُعْجز المعتدي.

1. السور كعامل دفاعي:

من المسلمات البديهية أنّ أسوار مدينة تلمسان شُيدت قصد التصدي لأعنف الهجومات، انطلاقا من فقرهاالمُزمن من حيث الموارد البشرية إذْ أنّ عدد المستقرين بأحواز المدية المباشرة ضئيل جداً، أما عمق القطر فتجوبه قبائل من الرحل —من البربر أو من العرب – ليست لها الرغبة في الدفاع على المدينة وذلك لانعدام منظور الكيان السياسي لديها، فلا حاجة لها بمن يفرض عليها الإتاوات، بل إنها في الكثير من الحالات تعاملت مع المهاجمين[1]. فكان لا بدّ للسلطات المحلية من أن تعتمد استراتيجية الدفاع بما تملكه من موارد بشرية محلية دون اللجوء إلى فرق من المرتزقة، سيما بعد محاولة اغتيال السلطان يغمراسن من قِبل حرسه المسيحي. هذا التوجه الهيكلي في تنظيم الجند يعدّ صلب توصية يغمراسن لبنيه.

وعليه كان من الضروري من رفع أسوار شامخة ومتينة تُطَمْئن المدافعين من جدوى مقاومتهم، وفي الوقت نفسه تزيد في معاناة المهاجم، لذا أبدع المصممون في إنجازها وإحكام تحصيناتها. ومن خصوصياتها أنها بُنيت بمادة "الطابية" المدكوكة جيدا لرفع مقاومتها.

وتسهيلالتنقل المدافعين من منطقة لأخرى عند ضرورات الدفاع، زُوّدت الأسوار بأنفاق فيأسفل السور الداخلي، تربط الأبراج فيما بينها.وعلاوة على الخنادق المحيطة بالسور، تمّ إحداث قلع أمامية (قلعة باب القرميديين بالشمال الغربي، وقلعة باب الرواح بالشمال الشرقي، وقلعة إمامة بالجهة

1- أشار بن خلدون في مقدمته إلى قلة المدن بالمغرب الأوسط وبسيادة البدو على معظم القطر.

الغربية) مع إنجاز "ستائر" أمام الأسوار سيما بالنقط الحساسة. هذه الستائر[1] هي حيطانشبيهةبالأسوار من حيث الصلابة لكنها قليلة الارتفاع يكمن القصد من تشييدها في:

- عرقلة تقدّم آلات هجوم العدوّ من الأسوار وتقليل مفعولها.

هذه الطريقة الدفاعية هي التي منعت السلطان يوسف المريني صاحب الحصار الطويل (1299-1307) من اقتحام الأسوار على الرغم من استعماله الأنفاط والزير.[2] وبعد ثلاثين سنة تمكن حفيده أبو الحسن المريني من دخول تلمسان عنوة (1337/737) أي بعد تهيئته لجبهة الهجوم دامت سنتين كاملتين، قام خلالها بتدمير الستائر وملء الخنادق، فتمكن من إلصاق أبراج الهجوم بالسور الجنوبي.[6]

- تعمل على تكسير جبة الهجوم في حالة اعتماد هجوم موجات المشاة المتتالية. فهذه الستائر تمنع المهاجمين من التقدم في نسق موحّد فتتثبط عزيمة المهاجم وفي الوقت نفسه تزيد في استعداد المدافعين.

تجدر الإشارة إلى أنّ كل اقتحام للمدينة (حفصي كان أم مريني) كان يصدر دوما عن الجهة الجنوبية الغربية، إذْ أنه لم يحدث إطلاق هجوم من الجهة الشمالية لأن الأسوار تشرف على منحدر يزيد ميله عن نسبة 30% إضافة إلى الستائر المعرقلة لتقدم المهاجمين.

هذا ومن الناحية الأمنية المتصلة بالأسوار تخبرنا كتب الحسبة وكتب النوازل عن كيفية تهيئة حيز الأسوار من الداخل والخارج. ففي الجهة الخارجية وإضافة إلى الخنادق و الستائر، يمنع تشجير الأراضي المحيطة مباشرة بالسور إذْ أنّ الأراضي العارية تقضي على كل مباغتة. وجاء اختيار مكان ملعب الخيل

1- محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ص:135 تح: محمود بوعياد. 1985

2- الأنفاط: أحجار المنجنيق تغطى بطبقة من الزفة المشتعل. الزير: سهم عملاق تقذفه آلة بها قوس

بالجهة الجنوبية إلاّ لتأكيد الجانب الأمني، إذْ أنّ من شروط ملعب الخيل خلوه من الأشجار والبناء الدائم. أما من داخل السور فيمنع إلصاق الدور بالسور وعدم غرس الأشجار إزاءه. إنّ هذا الحظر سمح بوجود نطاق يحيط من الداخل بالمدينة، فاحتفظت الذاكرة الجماعية ببعض أسماء الأماكن ك:"برج أقشاقش" و"درب السجان" (صانع الأقفاص للطيور المرغوب فيها بكل منزل وصناعة السلال والحلفاويين) وهي حِرف مسموح بها بحيز السور الداخلي للمدينة، وراس البحر و راس المصدع. وتتخلل هذا النطاق عدّة حارات نذكر منها رياض بن فارس وراس القصبة وحارة "البويبة" وكلها بباب الحديد، والحريبة بباب الجياد وحارة الرماية وتافراطة[1].

كما يجب علينا أن نشير إلى التغييرات الطارئة على أسوار المدينة منذ نشأة النواة الأولى للمدينة (تاقـــاررت) في العهد المرابطي، نهاية القرن الخامس الهجري.

- أوّل سور من وضع المرابطين كان من الآجر، أنجز أساسا كحيز يفصل الجهة المعمورة عن الأحواز، و لم يكن التفكير آنذاك في رفع حاجز قوي، إذْ أن القوة المرابطية هي وحدها السائدة بالمنطقة. وعند توسيعتاقـــــاررت مع تشييد الجامع الكبيروبابإيلانوتعمير الجهة الشمالية الغربية ، تم رفع سور جديد غربا وجنوبا. وعند سيطرة الموحدين على المنطقة قرر عبد المؤمن بن علي، انتقاما من سكان المدينة بتحطيم أسوارها، إلاّ أن بعد بروز خطر بني غنية الميرقيين الطامعين في السلطة بالمغرب الكبير، قرّرت السلطات الموحدية إعادة تسوير تلمسان، فأُحكم البنيان حتى صارت مدينة تلمسان من أمنع أمصار المغرب على حدّ تعبير عبد الرحمن بن خلدون.[8] ولما

1- اسم فرع من قبيلة زناتية أعطي للمنطقة الشمالية الغربية من تلمسان (منطقة استقبال قبائل البدو).

اتخذها يغمراسن بن زيان، عاصمة لدولته الناشئة، قرّر توسيع عمرانها باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي. إنه باختياره المرتفَع الموجود بالجنوب لإقامة مشوره، شجع في الوقت نفسه تعمير الجهة الشرقية المجاورة للمشور فخص بذلك منطقة باب الجياد للأندلسيين الراغبين في الاستقرار بالمدينة.لزم ذلك رفع تحصينات جديدة بجهتي الجنوب والغرب مع إحداث باب بالجنوب (باب التويتة) وباب ثان بالجهة الجنوبية الغربية (باب فاس) وإلغاء باب البنود المقابلة للمسجد الكبير لفقدانها وظيفتها. وبعد الحصار الطويل بادر حفيده السلطان أبو حمو موسى الأول بتعمير الجزء الغربي من المدينة (حي المطمر الذي شيّد به أولى مدارس تلمسان سنة 1310، وحي القصبة الذي خصه لاستقرار رهائنه من قبيلتي توجين ومغراوة)، فتمّ له بذلك تعمير الجزء الغربي من المدينة، مع نقل السور باتجاه الغرب. ثم قام ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الأول عند انجازه للصهريج الكبير والدور الفخمة المحيطة به، بتحويل ثان للسور الغربي، حماية لمنتزهه الجديد، كما قام بتعمير الحافة الجنوبية، نظرا لتزايد عدد الوافدين على المدينة (أندلسيون في غالبيتهم) وذلك نتيجة ازدهار المدينة الاقتصادي والعلمي، إذْ في عهده ارتقت تلمسان إلى حاضرة. لزم عن ذلك، إعادة تحصين المدينة من جهتي الجنوب والغرب مع فتح باب جديد غربا: باب كشوطة خلفا لباب فاس.كما بلغت تلمسان في عهده أقصى امتداد لها مع احتلال مسجدها الكبير مركز المدينة.

فالمتتبع لتطور النسيج العمراني للمدينة ومقومات التحصينات، يدرك أن:

- التغيرات الكبرى، استهدفت الحافة الجنوبية والغربية (الامتداد الطبيعي)

– التحصينات جزء من كائن حي تؤثر عليه الطوارئ وتتغير ملامحه وفق تطور عمران المدينة والانشغالات الأساسية للسلطة والسكان ومقتضيات الوقاية.

بقِي لنا توضيح الإشكال القائم حول عدد أسوار مدينة تلمسان، إذْ تروج في الذاكرة الجماعية أنْ كان عددها سبعة أسوار (والكل يعلم ما لرمزية العدد سبعة عند عامة الناس) وهو عدد لا يُعقل وجوده حتى وإنْ عُدّت الستائر أسوارا!!وكل ما هو في الأمر أن احتفظت الذاكرة الجماعية بالأسوار التي تمّ الاستغناء عنها بعد كل توسعة: المرابطية والموحّدية وما قام به مختلف سلاطين الدولة الزيانية. فإنْ قبلنا بهذا العدد فماذا بقي من مساحةٍ لأجزاء المدينة؟

ومن ناحية أخرى يمكن ردّ هذا الموقف إلى ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون حين وصفه لتحصينات المدينة في الحصار الطويل، إذْ يصرح على أنّ "الأطياف" يصعب عليها الخروج من المدينة.[1] ولفهم قصد ابن خلدون، نعود إلى الحادثة التي أوردها ابن مريم في كتاب البستان ومفادها أنّ السلطان المريني لاحظ مرة وهو يتفقد الحصار، قفة مربوطة بحبل، تُرمى من داخل السور إلى خارجه وبها بعض النقود، وهو الدليل المادي على أنّ هناك تعامل مثمر بين المحاصِرين والمحاصَرين، وعليه شدّد الرقابة على جنده وقرر أشدّ العقاب على المخالفين لأوامره.

وبإمكاننا رفض زعم ابن خلدون على النحو التالي: كيف تمكن العديد من الصناع المهرة من مغادرة المدينة للعمل في ورشات المرينيين؟ وكيف تمكن العديد من العلماء مغادرة المدينة المحاصرة ومن بينهم الآبلي الذي يُروى عنه أنه تصلق السور للاتصال بالسلطان المريني لتحرير أبيه من الأسر.

1- ع. بن خلدون: كتاب العبر، مج. 13، ص. 458.

لا يسعنا على هذا المستوى إلاّ الإقرار بأنه تعيّن على الذين أبدعوا في تحصين مدنهم، أن أوْجدوا لأنفسهم منافذ مخفية عن أعين العامة، ومن هذه المنافذ بالنسبة لتلمسان تلك الأنفاق التي جُهزت بالحافة الشمالية.

2. السور كفاعل اجتماعي

يعدّ بالنسبة لمدينة تلمسان السور الحدّ الفاصل بين نمطين من العيش. (يسود بداخل السور الطابع المدني الحضري وخارجه الطابع القروي الريفي). كان سكان المدينة – إلى حدّ الستينيات من القرن العشرين – يشعرون بالتغيير مباشرة بعد اجتيازهم لسور المدينة. ويتجسد التغيير في عدّة مجالات أبرزها المجال اللهجي والمجال العمراني.

- من حيث اللهجة: يسقط مباشرة بعد الخروج من أبواب المدينة استعمال الأف الذي يعوّض قافا، مع التمييز بين الذكر والأنثى على مستوى المخاطب، وخشونة ملموسة في الأصوات. كما يعود النطق بحرف الثاء الغائب باللهجة التلمسانية وكذا بالنسبة لحرف الضاد.
- من حيث تصميم العمارة: تختفي الساحة المركزية (وسط الدار) لصالح الحوش(ساحة تتقدم الدار) الذي يختلف في وظيفته عن وسط الدار، ويختفي "النباح"[1] لصالح المامونى[2].

وعادة ما تتألف البنايات من طابق أرضي(ما عدا المُنيات التي هي دور فخمة تمتلكها العائلات الأميرية أو الغنية من الحضر). تضم المنازل العادية عدّة

1- نُباح: من الباحة على شكل إيوان داخل وسط الدار تكثر به النبتات.

2- مامونني (نسبة إلى عبد المؤمن بن علي الكومي) باحة خارج المنزل قليلة الارتفاع تطل على بستان (عرصة).

بيوت ومخزن واسطبل و"فْرِينَة"[1] ملازمة حتما لكل بناية ريفية. وبالحوش توجد بعض الحيوانات الداجنة ويمكنه في بعض الحالات استقباله ليلا للأنعام.

تبرز هذه الفقرة الفرق الكبير بين نمطي العيش الموجودين بين سكان المدينة وأحوازها المباشرة

3. السور كحزام صناعي:

من الدلائل المؤكدة على أنّ التنشئة العمرانية بمدينة تلمسان ليست أمرا عفويا، بل تمّ مسبقا التفكير في هيكلة النسيج العمراني الحضري ليوائم المتطلبات الصحية للجماعة القاطنة داخل الأسوار. وعليه تمّ اختيار مواقع الصناعات الملوثة أو المزعجة بروائحها أو ضجيجها أو أحجامها أو غبارها أو دخانها بخارج سور المدينة. يمكن القول بأن تلمسان اهتدت لهذا النموذج الإيكولوجي قبل ظهور الأنطقة الصناعية الناتجة عن الثورة الصناعية الأوروبية. ومن يتأمل في أماكن تواجد الورشات الصناعية المحظورة بداخل المدينة يجدها في أغلبها متمركزة بالحافة الشرقية وذلك لاستغلال العامل الطبيعي الكامن في التيارات الهوائية السائدة بالمنطقة، إذْ تعمل الرياح الغربية على ابعاد الروائح والغبر والدخان من التجمع السكاني. أما دار الدباغة الوحيدة الموجودة بالزاوية الشمالية الغربية على مستوى شعبة الحرة فروائحها وغبارها لا يؤذي السكان وذلك نتيجة علوّ السور ووجودها في منخفض الشعبة مع خلوّ المنطقة من السكان إذْ أن المنطقة بداخل السور خصصت للمطامير ومأوى لقبائل البدو عند الطوارئ (منطقة تافراطه). وما يصح عن ورشات الدباغة طبق على انتاج الآجر والقرميد والأواني الفخار المنزلي. تقع ورشة انتاج القرميد بالحافة الشمالية بالقرب من الباب الذي يحمل اسم المنتوج، إلاّ أنه ونظرا لصنع الفخار

1- الفْرِينَة: وسيلة محلية لطهي الخبز.

المنزلي من مادة الصلصال الأبيض، سُمح لمنتجيه بعرضه وتخزينه بداخل السور بالجهة المحاذية لإنتاج القرميد، لذا تعرف المنطقة لحدّ الساعة بحارة الفخارين. والموقف نفسه اتخذ لصالح الحلفاويين والسجانين والسلالين الذين ينشطون بالجهة الداخلية من السور الشرقي من جنوب باب زيري إلى باب الجياد مرورا ببرج أقشاقش. أما الجانب الخارجي من قطعة السور نفسه فتعرض بها المواد الأولية ومواد البناء.

وإنْ كانتاكتفت المدينة بورشة واحدة لإنتاج الآجر والقرميد، فذلك اتقاء إزعاج السكان من دخان وهرج نقل المادة الأولية وتراكم المنتوج،لذا فضلت المدينة استيراد ماتحتاجهمنهذهالمواد من منطقة بني سنوسالمشهورة بإنتاج المواد الفخارية والجير.

ولتأكيد المنظور الإيكولوجي لم يوجد أي فرن لإنتاج الجير (المنتج أثناء احتراق الحجارة لثاني أكسيد الكربون)، حول حيز السور، بل أُبعِدت هذه الورشات إلى الأماكن التي توجد بها مقالع للحجارة الكلسية المتحولة بعدا حراقها إلى جير أي إلى منطقتي البَعْل بأعالي تلمسان، وبجوار قرية عين الحوت باتجاه الشمال.

لا بأس إنْ توقفنا في نهاية المطاف عند سؤال محيّر: ماذا تعني كثرة الأبواب بالمدينة في حين أنها من أكثر مدن المغرب تعرضالحصارات متتالية؟ فإذا قمنا بإحصاء عدد الأبواب من المؤلفات نحصّل على ثلاثة وثلاثين بابا[1] في حيز لا يتجاوز محيطه خمسة كلومترات، فلا يُعقل وجود فاصل بين بابين لا يزيدعن مئة وخمسين مترا. والواقع أن هذا العدد الهائل لم يتواجد في وقت واحد، وكثيرا من هذه الأبواب اندثر إبان التوسيعات الطارئة على الأسوار، كما أنّه

1- س. م. نقادي: التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية، مخوط ماجستير جامعة تلمسان (1992)

توجد أبواب تحمل أكثر من اسم (باب فاس هي باب كشوطة وباب سيدي أبي جمعة وباب الجغليلة) وأبواب أخرى هي أبواب لأحياء سكنية أو حرفية (باب علي، باب السكة). ومهما يكن من أمر، يبقى عدد الأبواب مرتفعا، وذلك تلبية لطلبات اليد العاملة القاطنة بالمدينة والراغبة في الالتحاق بمقر عملها دون مشقة،وعند أي طارئ يكون لهؤلاء الحرفيين إمكان العودة إلى ديارهم بسرعة وقبل غلق الأبواب. هو منظور يؤكد وعْي المصممين عند تصورهم للخِطة العمرانية بمدينة تلمسان[1]. ولا يفوتنا أنْ نشير إلى الدور الأمني والمالي الذي تحظى به الأبواب الرئيسية للمدينة، إذ على مستواها يتم مراقبة الوافدين، كما يتم بها استلام المكوس عن البضائع الواردة من الأحواز.

هذه الأمثلة تبرز مدى اعتناء السلطات بأمر التهيئة العمرانية الهادفة إلى حفظصحة الجماعة وارضاء رغباتها. وهي تؤكّد في الوقت نفسهأن السور جزء من كائن حي يتطور وفق خطة محكمة تحافظ في آن واحد على صحة السكان مع خضوعها إلى مقتضيات الاقتصاد، وحمايتها للطبيعة.

منظور طُبّق في العديد من المدن التي أنشأها النسق الفكري الإسلامي (القيروان، بغداد، فاس، القاهرة) إلا أن التصميم العمراني لمدينة تلمسان (المتأخِّر عن العواصم الأخرى)، فاق كل التصورات آنذاك، فأفرز نسيجا عمرانيا متميزا عن أقرانه، وربما حدث هذا عند التفاعل الجيّد للموقع بالمناخ ووفرة الموارد الطبيعية وتجاوب الموارد البشرية لها، فكانت النتيجة على قدر التحدي.

1- عُدّت الدباغة، من ضمن الحرفة الثلاث الكبرى، المشغلة عدد معتبر من اليد العاملة التلمسانية.